وقد سبق لنا القول في سبب انتقال الحركة التجاريَّة العموميَّة في عهدنا . فعلَّة ذلك انَّ القطب الذي عليهِ كان مدار الحركة التجاريَّة لم يَعُد في مكانهِ مارًّا في وسط بلاد الشام بل تحوَّل عن ممرّهِ فصار يمتدُّ في طريقين أُخريين اما في شرقي الشام واماً في غربيها . وليس هذا الخلل الوحيد الذي تدلّنا عليهِ القوانين الجغرافيَّة فانّنا نرى خللًا آخر يضعِف هذه البلاد تشير اليهِ الجغرافيَّة ايضاً

*

تشبه سوريَّة في هيئتها الطبيعيَّة مربَّعًا كبيرًا يقيس طولهُ ثماني مرَّات عرضَهُ لأنَّ طولهُ من جبل طورس الى جبل سينا لا يقلّ عن ١١٠٠ كيلومتر بخلاف عرضهِ الذي لا يتجاوز معدَّلهُ ١٥٠ كيلومترًا . وكلّ يعلم انَّ مثل هذا التباين في الاقيسة يضرُّ بالموازنة ويمنع الارتباط والوحدة بين جهات البلاد . لأنَّ الجسم السياسيّ اذا امتدَّت اطرافهُ فبعُدت عن مركز الحكم خفَّ فعلهُ فيها . ومن ثمّ ترى الانحاء تطلب التفرُّد فتضعف القوَّة العموميَّة . وهذا ممَّا يظهر اليوم فى بعض البلاد رغمًا عن الروابط العظيمة التي تستعين بها الدول في عهدنا لضمّ اطرافها وتوحيد عناصرها كاحتكار القوَّة وتعميم التعليم والجنديَّة الالزاميَّة وغير ذلك ممَّا تفرَّدت بهِ الدول الحاليَّة . مثال ذلك ما تجدهُ في ايطالية فانَّ الحكومة الواحدة تحكم على بلاد مختلفة طبائع واغراضًا كبلاد بيامنتي في الشمال وبلاد صقلّية في الجنوب وحتَّى الآن لم تقوَ الحكومة على مزج هذه العناصر المتباينة وتوحيدها

ويضاف الى هذا الخلَل في تركيب سوريَّة الجغرافيَّة خلل آخر ليس باقلّ ضررًا منهُ بوحدة ادارتها زيد سلاسل جبالها التي تخترق البلاد فتمنع اختلاط طوائفها وتوحيد عناصرها . كما ترى في سويسرة وجهات الاناضول حيث ارتفعت ايضاً الجبال الشاهقة فاضرَّت بامتزاج اقسامها . والتاريخ يعلمنا انَّ الدول الكبرى كانت تجعل مراكزها في السهول . اما سهول سوريَّة فتراها بعيدة عن مركز حركتها معتزلةً في طرفها الشماليّ الشرقيّ وتلك الجهة اشبه ببادية مقفرة وهي منزوية معتزلة فلا تستطيع ان تنشأ فيها مدينة عامرة تحيي الاطراف بنفوذها

وما هو اخطر من ذلك انَّ هذه الجبال السوريَّة التى يبلغ معدَّل علوّها ٢٠٠٠

متر تقوم في وسط البلاد كحاجز متواصل يفرد كلّ طائفة في مكانها ويؤثر في حياتها فاصلًا كلّ قسمٍ عن اخيهِ بحيث لا يمكنهُ ان ينال منهُ فائدةً لترقيهِ وتمدُّنهِ . لاسيما انَّ هذه السلسلة تمتدّ من الشمال الى الجنوب وهي وجهــة اقلّ نسبةً لامتزاج الشعوب من وجهــة الغرب الى الشرق لان السكّان اذا انتقلوا تابعين لدرجات العرض امكنهم ان يعتادوا تغيير الاحوال الجوّيَّة بخلاف الذين يتبعون درجات الطــول فانهم يُبلَون بمقاساة المظاهر الجويَّة التي لم يعتادوها

وزد عليهِ انَّ جبال الشام تنفصل في سوريَّة الوسطى الى سلسلتين متوازيتين لا تكاد الثانية تختلف في علوّها عن الاولى . وهذه السلسلة الجديدة تُدعى بالجبل الشرقيّ تمتدُّ شُعَبها على نواحي دمشق وبادية تدمر وحوران ومــا وراء الاردن . والجبلان اشبه بحائطين هائلين بينهما البقاع والغور كوادٍ غريب يبلغ منهبطهُ عند طرفهِ الجنوبيّ اي بحر لوط عمقاً لا يقلّ عن ٤٠٠ متر تحت سطح البحر المتوسّط

والحقّ يقال انَّ الطبيعة احسنت الى سوريَّة في شيء اذ حصَّنتها بسور من الجبال لكنَّها افرطت في توفير هذه الجبال في قلب البلاد . فانَّ السائر الذي يتوغّل من سواحل الشــام الى الجهات الداخليَّة يلقى في مسيرهِ خمسة انحاء جغرافيَّة تختلف احوالها كلّ الاختلاف في حرارتها وهوائها ونباتها مع قلَّة اسباب المواصلات بينها لأنَّ السلسلة الكبيرة التي تمتدّ طولًا في وسط سوريَّة لا تنقطع انقطاعاً محسوساً الّا عند علوّ طرابلس حيث توصل جبل النُّصيريَّة باوَّل منعطف لبنان آكامٌ قليلة الارتفاع

ولو قطعتَ سوريَّة تبعاً لخطّ الهاجرة اي من الشمال الى الجنوب لوجدت فرقاً كهذا . فان الطبيعة قد قسَّمت سوريَّة الى خمس او ستّ كُوَر مختلفة السعة تعزلها عن بعضها الانهار او الجبال بحيث تستطيع كل كورة ان تكون منفردة عن اختها (١ وكذلك في الشمال البلاد المرتفعة الواقعة بين الفرات ومصبّ العاصي . وفي الوسط بلاد البقاع بين سلسلتي لبنان غير المتساويتين . ثمَّ دمشق وغوطتها من جهة وفينيقية من جهة أخرى . واخيرًا في الجنوب مجموع بلاد متباينة كأنها طبقات درجيَّة ترتفع فوق بعضها على جانبي وادي الاردن شمالًا ويميناً

١) اطلب تاريخ الامم الشرقيَّة للعلَّامة مسپرو (ج ٢ ص ١٤)

وممّن لحظوا هذه الاختلافات الغريبة التي خُصَّت بها انحاء الشام جغرافيٌّ عربيّ من مشاهير كتبة القرن العاشر زيد شمس الدين ابا عبدالله محمّد بن احمد المعروف بالمقدسيّ وكان اصلهُ من الشام فانهُ دوّن في كتابهِ الموسوم « باحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ملحوظاً جغرافيًّا يدلّ على توقُّد ذهنهِ ودقّة فكرهِ قال في وصف اقليم الشام (في الصفحة ١٨٦) :

ووَضْع هذا الاقليم ظريف . هو اربعة صفوف : الاوّل يلي بحر الروم وهو السهل رمالٌ منعقدة ممتزجة يقع فيهِ من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصفّ الثاني الجبل مشجّر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيهِ من البلدان بيت جبرين وايليا (١ ونابلس واللجُّون وكابل وقدَس والبقاع وانطاكية . والصفّ الثالث الاغوار ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ونَيْل يقع فيهِ من البلدان ويلة وتبوك وصغر واريحا وبيسان وطبريّة وبانياس . والصفّ الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرًى وعيون واشجار يقع فيها من البلدان مآب وعمّان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وتقع الجبال الفاصلة مثل جبل زيتا وصدّيقا (٢ ولبنان واللكام وسرّة الارض المقدّسة في الجبال المطلّة على الساحل »

وكلّ هذه الفروق في الوضع الطبيعي قد علّلت بتتابع الأيام اطوارًا تاريخيّة مختلفة وكثيرًا ما عاش اهل تلك الانحاء يجهل بعضهم بعضاً . فالجبليُّون يتحصّنون في مشارفهم الطبيعيّة كما في قلاع حريزة وكذلك اهل المنعطف الشرقي كانوا مبتعدين عن سكّان السواحل . وهؤلاء لا يفكّرون الّا في سفنهم وبحريّتهم لا يكترثون لمن توطّن السهول الداخليّة . وقد أدّت بالفينيقيين عزلتهم وحبُّهم للتفرّد انّ كلّ فئة كانت تقصر نظرها الى قطعة من الارض ورثتها من اجدادها فتكتفي اماّ برأس ساحليّ واماّ بخليج او جزيرة كما ترى في ارواد وجُبيل وصيداء وصور لكلّ منها استقلالها النوعيّ . ولهذا السبب نرى السوريين منذ اقدم الاجيال « منقسمين الى عدّة طوائف متخاصمة تسعى كلّ واحدة منها حتى اصغرها في حفظ منافعها الخاصّة ولا تزال تدافع بالحرب العوان عن قطعة من الارض او بعض فدادين من المزارع او بعض الاحراج الجبليّة . فترى القتال

١) القدس الشريف

٢) جبل زيتا هو جبل الزيتون وصديقا جبال بلاد بشارة

قائماً على ساق بين هذه المقاطعات فيستولي عليها الخراب والدمار كأن عدواً مغواراً دخل فيها واعمل فيها السيف والنار» (١

وان اعتبرت تاريخ سوريّة وجدت هذا الاقليم متقسماً الى ايالات منفردة تسكنها العشائر المنفصلة. ففي سوريّة تعدّدت روساء القبائل وشيوخ الطوائف ورؤساء الرُّبع فيجد محبُّ المسكوكات والمكاتبات مادّةً واسعة لدرس آثارهم لكنَّ المؤرخ يتيه في بيداء اقسامهم السياسيّة

وكانت نتيجة هذه الانقسامات الشعبيّة والتفرُّقات في الأغراض والاملاك انَّ البعض وجدوا فيها ما يوافق مطامعهم ويعظّم اشخاصهم لكنَّها اضعفت القوى وقسمت الكلمة. وهذا ما نراهُ في تاريخ سوريّة في اقدم الآثار تشهد عليهِ مراسلات تلّ العمارنة التي ترتقي الى المئة الخامسة عشرة قبل المسيح (اطلب تصريح الابصار ج ١ ص ٧١—٧٩) فتؤخذ من هذه المكاتبات انَّ دُوَلًا عديدة كانت تتزاحم مذ ذاك في سوريّة منها في السهول ومنها في الجبال بل كانت كلّ مدينة عبارة عن دولةٍ يتحصّن فيها اهلها ويردّون غارات الدولة المجاورة. ولو شاء المسافر لقطع في اليوم الواحد تخوم عدّة املاك مستقلّة. هذا ما ورثهُ تاريخ الشام بكثرة التقاسيم الجغرافية والحواجز الطبيعيّة

١) راجع مسپرو في تاريخهِ المذكور